المحاضرة: السابعة: الحجاج في البلاغة

تعريف البلاغة: البلاغة من الفعل الثلاثي " بلغ " أي أدرك غايته، والإنسان " البليغ " هو الإنسان القادر .على إقناع غيره والتأثير فيه بواسطة الكلام أو الكتابة
وفي تعريف الجاحظ للبلاغة يقول: " إن الكلام لا يستحق اسم البلاغة حتى يسبق معناه لفظه ولفظه معناه، فلا يكون لفظه إلى السمع أسبق من معناه إلى القلب " وهذا التعريف يشير إلى أن البلاغة تعني الكلام .الجميل والفصيح الذي يأخذ بقلب السامع
وفي كتابه " الإيضاح في علم البلاغة " يعرف القزويني البلاغة بأنها: " مطابقة الكلام لمقتضى الحال مع فصاحته " . إن البلاغة إذن خطاب فصيح ملائم لمقتضى الحال، يستهدف التأثير في السامع وإقناعه، ومن هنا فهي تحمل طابعا حجاجيا يحقق ذلك الهدف، إذ السؤال المطروح: ما الذي يحمل المتلقي على الاقتناع والتأثر ما لم يحمل الكلام حججا في الخطاب تملي عليه ذلك؟
الحجاج و البلاغة في الخطاب العربي:
1- الحجاج والبلاغة عند الجاحظ
في كتاب الجاحظ " البيان والتبيين " هيكلة للنص البلاغي تنطلق من المستوى الحواري، مستوى الحركات، مستوى السلطة: فالمستوى الحواري يبدأ بطرح السؤال الذي يتطلب إجابة قد تثير رد فعل لدى المخاطب، وبالتالي يحدث تفاعلا تقدم فيه الحجج من الطرفين المتكلم والسامع. أما مستوى الحركات فيعبر عن الانتقال من طرح الدعوى إلى تقديم الحجج والتقدم فيها حتى بلوغ النتيجة. وأخيرا، مستوى السلطة التي تعبر في الثقافة العربية على حجة النقل. وبهذا الحجاج يوجد على كل مستويات الخطاب .البلاغي
أما الأنماط الحجاجية في الكتاب فهي: المحاورة الجدلية و المحاورة الخطابية، فالمحاورة الجدلية " تطلق على كل خطاب يقوم على المقابلة والتفاعل الموجه...بين فريقين للوصول للحق أو الصواب" وتقوم على ثلاثة مفاهيم: "" الادعاء ويسمى عرض الدعوى، والموانع وهو الاعتراض على الدعوى، ثم التدليل " التدليل بمعنى الإتيان بالدليل على إثبات الدعوى أو الاعتراض عليها، كما هو الحال في المناظرة والمثال الذي يقدمه الجاحظ عنها هو حوار ابن السماك مع جاريته: " فلما انصرف إليها قال لها: كيف سمعت كلامي ؟ قالت: ما أحسنه، لولا أنك تكثر ترداده. قال: أردده حتى يفهمه من لم يفهم. قالت: إلى أن يفهمه من لا يفهمه قد مله من فهم " فهنا إدعاء بن سماك واعتراض الجارية عليه. وأخيرا التدليل من الطرفين: فهو يكرر الكلام لكي تفهم، بينما هي تظهر مللها من التكرار
أما المحاورة الخطابية: خطاب حجاجي في المسائل الخلافية والمحتملة القابلة للنقاش، وتقوم عند الجاحظ على الأسس التالية: المقدمة، السرد أو عرض الرأي، الحجاج، النهاية. وتظهر في أشكال النصوص التالية وهي: الخطبة، والرسالة، والوصية
إن الخطبة مثلا عند الجاحظ فن من فنون التكلم مع الجمهور، وهي مرتبطة بمقام الجمهور وطبيعة موضوعها وأهدافه، ومن مقامات الخطبة: مقام التعلم مثل خطبة الرسول (ص) في حجة الوداع، فالجمهور هنا يتعلم من النبي ويتلقى أوامره ونواهيه وتوجيهاته. ومقام الوعظ ويظهر في خطب الوعد والوعيد والترغيب والترهيب مثل خطبة علي كرم الله وجهه، الذي بعد أن حمد الله وصلى على نبيه قال: " أما بعد فإن الدنيا قد أدبرت وأذنت بوداع، وإن الآخرة قد أقبلت وأشرفت باطلاع، وإن المضمار اليوم والسابق غدا". أما مقام الوعيد فهو مرتبط بالخطبة السياسية وما تتطلبه من تهجم واستخفاف بالخصم أو إطراء ورفع للمقام، ومن ذلك خطبة الحجاج الثقفي في أهل العراق لما لاحظ تكبيرا كثيرا في السوق، صعد المنبر فقال: " يا أهل العراق، يا أهل الشقاق والنفاق، ومساوئ الأخلاق، وبني اللكيعة وعبيد العصا...إني سمعت تكبيرا لا يراد به الله، وإنما يراد به الشيطان"، وأخيرا مقام الجهاد، حث ترتبط الخطبة بالحماسة وتعظيم الجهاد في النفوس واستثارة الهمم، ومن الأمثلة عليها خطبة علي بن أبي طالب وحثه على الجهاد في قوله: " أما بعد فإن الجهاد باب من أبواب الجنة، فمن تركه رغبة ألبسه الله لباس "الذل، وشمله البلاء

الصور المختلفة لأساليب الحجاج البلاغي عند الجاحظ: يستخدم الجاحظ في كل النصوص سواء كانت خطبة أو وصية أو رسالة أو مناظرة الصور الحجاجية المختلفة مثل: القياس والتمثيل والشواهد: فالقياس نوع من الاستدلال، فكما يستدل بالخبر لإيقاع التصديق أو الإقناع فكذلك يستدل بالقياس، وهو عند البيانيين لا يعني بالضرورة استخراج نتيجة لازمة عن مقدمتين، بل يعني عملية توليد المعنى بحسب السياق والظروف، ولذا استخدموا صورا متعددة للقياس ومن الأمثلة التي يسوقها الجاحظ عن القياس هو قول قسامة بن زهير للناس: " يا معشر الناس، إن كلامكم أكثر من صمتكم، فاستعينوا على الكلام بالصمت." ويمكن عرض كلامه كما يلي:
مقدمة كبرى: إن كلامكم أكثر من صمتكم./ مقدمة صغرى: فاستعينوا على الكلام بالصمت/ النتيجة (هنا مضمرة أو ضمنية): الصمت خير لكم من الكلام
أما التمثيل أو المثال أو المثل فهو " المثال الذي يحذى عليه، كأنما جعله مقياسا لغيره " فهو يدل على العملية العقلية التي تقوم على المماثلة أو المشابهة، شيئان متماثلان فنحكم بما حكم على الأول على الثاني. يقول الجرجاني: " وإن كان حجاجا، كان برهانه أنور، وسلطانه وبيانه أبهر " قال تعالى " وضربنا لهم الأمثال " والمثل قد يكون حسنا أو سيئا بحسب الغرض الذي يريده المتكلم. إن أحسن الأمثلة على التمثيل تحريم الربا، إذ قال رسول الله (ص) : " أول ربا نبدأ به ربا عمي العباس " فإن كان ربا عمه أول من يسقط، فمن باب أولى أن يسقط ربا غيره
وأخيرا الشاهد أو الشواهد: هو ما يستشهد به الخطيب من آثار تلقى قبولا لدى المستمعين، وكان أهم تلك الشواهد في تاريخ العرب والمسلمين هو القرآن الكريم والأحاديث النبوية الشريفة والأمثال والحكم والشعر، حيث وظف الخطباء القرآن الكريم, كدليل ليس فقط بما يتعلق بالعبادات بل في كل أمور الحياة السياسية والاجتماعية والتربوية، وهنا نجد الجاحظ يقول: " وكانوا يستحسنون أن يكون في الخطب يوم الحفل، وفي الكلام يوم الجمع آي من آيات القرآن، فإن ذلك مما يورث الكلام البهاء والوقار والرقة وسلس الموقع..." وينطبق الأمر نفسه على الأحاديث النبوية الشريفة نظرا لمكانتها لدى الجمهور، ولهذا ظهر في عصر الجاحظ الأحاديث الموضوعة والمزيفة، وكان من الضروري أن ينشأ علم الحديث لتمييز الصحيح منها من الفاسد، وأما استشهاد الخطباء بالأمثال والحكم والشعر فأمر قد سار عليه العرب وغيرهم حتى قبل الإسلام
وبالجملة، فإن للحجاج أو البيان عند الجاحظ، كما يرى الأستاذ محمد بن العمري، ثلاثة وظائف هي: " الوظيفة المعرفية و تتمثل في إظهار الأمر على وجه الإخبار قصد الإفهام، أما الوظيفة التأثيرية فتتمثل تقديم الآخر على وجه الاستمالة وجلب القلوب، والوظيفة الحجاجية تبرز وجه الاحتجاج والاضطرار"في

2- الحجاج و البلاغة عند صلاح فضل

يعدّ صلاح فضل أحد ممثّلي المدرسة المصريّة، فهو أوّل باحث عربي معاصر اهتمَّ ببحوث البلاغة المعاصرة و الحجاج حيث عنى على وجه الخصوص بإسهامات الرائد "بيرلمان" كما يعد أوّل من أشار إلى الرّوافد المعرفيّة للحِجَاج في المجالات الفلسفيّة والعلميّة من قبيل؛ الذّكاء الاصطناعي وعلم اجتماع المعرفة، فضلاً عن طرافة التصوّر الّذي قدمه للرّبط بين البلاغة وعلم النصّ
إنّ النّاظر إلى حركة البحث في البلاغة المعاصرة في صلب المدرسة المصريّة سيجد أنّ كتاب "بلاغة الخطاب وعلم النص" لصلاح فضل من بواكر المصنّفات في حقل الدّراسات النّقديّة العربيّة المعاصرة الّتي تناولت "بلاغة الحجاج". فالبلاغة المعاصرة قد انفتحت على المعارف بفضل التّداخل المعرفي

يقدّم صلاح فضل الأفكار الّتي يطرحها أصحاب النّظريّة الحجاجيّة، ويبين لنا في الوقت نفسه روافدها المعرفيّة وآرائها الفنيّة، إلاّ أنّه يمكن القول إنّ أبرز الإضافات الّتي قدّمها هي تمييزه بين البحثين البلاغي والأسلوبي، وتوسيعه دائرة البلاغة المعاصرة
كما يؤكد أنّ المباحث الجديدة؛ أي مباحث الذّكاء الاصطناعي الّذي يوفّر للباحثين وخاصّة في مجالات اللّغة والبلاغة والحجاج، معلومات مهمّة تمكّ نهم من إدراك أبنيّة المعارف التي يمتلكها كلاً من المتكلّم والمتلقّي، كي يستطيع بحث كيفيّة تعديلها طبقًا للبيانات الجديدة الّتي تتيحها لهم النّصوص

لقد أفلح صلاح فضل؛ في توسيع دائرة البلاغة المعاصرة، وقدّم للقارئ العربي قراءة واعية وصورة جليّة عن مداخل نظر عديدة فتحتها البلاغة واتّجاهاتها على وجه العموم والحجاجيّة على وجه الخصوص.

2- الحجاج والبلاغة عند محمد العمري :

الأستاذ محمد العمري أستاذ مغربي وباحث معاصر كرس بعض مؤلفاته لدراسة البلاغة، ومن ثم علاقتها بالحجاج، ومن بين مؤلفاته في هذا الشأن: " في بلاغة الخطاب الإقناعي "، " أسئلة البلاغة في النظرية والتاريخ والقراءة "، " البلاغة الجديدة بين التخييل والتداولية. " ويظهر أنه يحاول تقديم قراءة جديدة للبلاغة العربية، لكن من خلال الحفاظ على موروثها القديم سواء ذلك الذي يعبر عن خصوصية المجتمع العربي الاسلامي أو اليوناني، من هنا تأتي دراسته للبلاغة عند الجاحظ وأرسطو، ومن جهة أخرى يظهر أنه متأثر بالنظرية التداولية المعاصرة في تحليل الخطاب البلاغي بشكل عام

يعرف الأستاذ البلاغة بأنها: " علم الخطاب الاحتمالي الهادف إلى التأثير أو الإقناع أو هما معا إيهاما أو تصديقا." ومن خلال كتابه" البلاغة الجديدة بين التخييل والتداولية " يقر الأستاذ أن البلاغة الجديدة تتضمن عنصرا شعريا انفعاليا جماليا وآخر دلاليا عقلانيا حواريا متعلقا بالسياق والظروف، والخطاب البلاغي لا ينفك عن الربط بين هذين العنصرين، فهو يقول: " وهكذا فإننا بقدر ما نعمل على استرجاع المكون الدلالي إلى موطنه الأصلي، بقدر ما نصر على حفظ البعد الوجداني الانفعالي لهذا المكون، البعد الذي يتقاطع فيه مع الشعر، في هذا اللقاء بين العقل والوجدان توجد عاصمة البلاغة." إذن الخطاب البلاغي لا يستهدف فقط الإمتاع باعتباره عنصرا جماليا، بل يستهدف أيضا الإقناع والإفهام باعتباره عنصرا دلاليا، ومن هنا تأتي علاقته بالحجاج.

لقد ركّز محمد العمري في كتابه " في بلاغة الإقناع " على تاريخ الخطاب وبلاغةالإقناع، حيث سعى إلى تطبيق التصوّ ر الغربي مستند اً على نظريّة الإقناع عند أرسطو حيث اعتمد على الأسس الأرسطيّة لبلاغة الخطاب أو الخطاب عمومًا لاسِيَّمَا الحِجَاج والبراهين الخطابيّة. مما أفضى به إلى تصنيف المقامات على النحو التالي :

مقامات الخطابة الدينية: ويمكن تقسيمها إلى ثلاثة أصناف تبعا للمتلقي ووفق الرّسائل الموجّهة إليه، فهو:

إمّا أن يكون خالي الذّهن يتقبّل المعرفة الملقاة إليه، حيث يقتضى ذلك خطابة تعليميّة

وإمّا أن يكون متناسيًّا لما يعلم غافلاً كما ينتظر، فتتطلّب حالة البحث على العمل

.والتّخويف، وتلك هي الخطابة الوعظيّة

وإمّا أن يكون عالمًا مخالفًا وجاحد الوجه، في نظر الخطيب، وفي هذه الحالة لابدّ من

المحَاجَّة والبرهنة، وتلك الخطابة الحجاجيّة 1

قامات الخطابة السياسية: ويندرّج في الخطابة السّياسيّة كل حوا ر في القضايا

التي تهم تسيير الحياة المدنية للناس والدول.

يشير محمد العمري إلى زيادة الاهتمام بالحجاج وكثرت الحاجة إليه في فترة الشواغل الكلاميّة، حين صار التسلّح بالمسائل الحِجَاجِيّة البلاغيّة اللّغويّة أمرًا ضروريًا للدّفاع بها ضد مزاعم المشبّهين لنصّ القرآن الكريم من جهة، ولمقارعة الفرضيّات المضادة الّتي يقدّمها الخصوم من جهة أخرى. ويعرض عن الحديث عن الأبعاد التداوليّة في البلاغة العربيّة القديمة إلى ذكر مجموعة من أفكار القدماء، وجهودهم، مما يدلّ على هذه الأبعاد من مثل ما كشفه الجرجاني والسّكاكي

وحاصل القول إنّ محمد العمري قد عمل على تصنيف المقامات إلى مقامات الخطابة الدينيّة، ومقامات الخطابة السّياسيّة، ومقامات الخطابة الاجتماعية وشؤون الحياة، فقد تأثّر بنظريّة الإقناع الأرسطية حيث اعتمد على أسسها وطبق مناهج هذا الأخير في تحليلاته الخطابيّة

إن الخطاب البلاغي سواء كان شعرا أو نثرا يتضمن أدوات وأساليب حجاجية يتوقف عليها حصول الامتاع والاقتناع لدى المتلقي، وهي أساليب لغوية وتركيبية وبيانية وكذلك تداولية مثل ملاءمة الخطاب لمستوى المتلقي، " لأن نجاعة الخطاب ترتبط بمدى الاستناد إلى التوافق الموجود بين المرسل والمتلقي المستهدف، ومدى تلاؤم هذا الخطاب مع مستواه وتطلعاته." وتبعا لذلك حاول أن يثبت كيف يتجلى عنصرا التخييل والتداول في النصوص العربية الساخرة وفي السير الذاتية وفي المجاز الذي يطبع التفكير العربي أكثر: فالسخرية كإحدى أشكال الخطاب البلاغي تقوم على المفارقة أو التقابل الدلالي من جهة،

وتقدم في شكل تأثيري جمالي من جهة أخرى. لقد وجد ذلك في النصوص الساخرة التي يقدمها الجاحظ، حيث البخلاء في نصوصه أكثر غنى ومعرفة ومع ذلك فهم بخلاء، وهو تقابل دلالي يعبر عن مفارقة، ولكن الجاحظ يعرض ذلك في ثوب تأثيري جمالي يتمثل في ذهول البخيل وغفلته عن التكيف مع الواقع، وإمعانه في تصوير ذلك الإنحراف إلى حد أنه يجلب لصاحبه الضحك والسخرية من الغير، فعدم التكيف هنا يدل على فشل في الحجاج والدفاع عن الذات

إن الأمر نفسه ينطبق على السير الذاتية، فهي بقدر ما تتضمن أخبارا واقعية عن صاحبها بقدر ما تنطوي على صور وأخيلة ينسجها المؤلف للتأثير في القارئ. إن حجاجية السيرة الذاتية ليست في الحجج التي يقدمها المؤلف عن الأفكار التي تسرد حياته الواقعية، بل في قدرته على التأليف بينها وإضفاء مسحة جمالية تشد الآخرين إليها، كذلك الأمر في مجال المجاز أيضا، الاستعارة مثلا فيها تداخل بين الواقع والخيال، حيث إلى جانب جماليتها فهي تحاجج على دلالتها

خلاصة

يتضح من التحليل السابق أن مفكري الاسلام القدامى والمعاصرين قد اهتموا بالخطاب البلاغي، واستطاعوا استخلاص طابعه الحجاجي في صوره البنائية واللغوية والدلالية المختلفة

المصادر والمراجع

أرسطو: فن الخطابة، ترجمة: عبد القادر قنيني، إفريقيا الشرق، الدار البيضاء، الطبعة الأولى، 2008م

أميمة الدهري: الحجاج وبناء الخطاب في ضوء البلاغة الجديدة، شركة النشر والتوزيع المدارس، الدار البيضاء، المغرب، الطبعة الأولى، 2010م

أحمد المتوكل: اللسانيات الوظيفية، دار الكتاب الجديد، بيروت، لبنان، الطبعة الثانية، 2010م

أبو بكر العزاوي: اللغة والحجاج، مطبعة العمدة في الطبع، الدار البيضاء، المغرب، الطبعة الأولى، 2006م

جون أوستين: نظرية أفعال الكلام العام، ترجمة: عبد القادر قنيني، إفريقيا، الدار البيضاء، المغرب، الطبعة الأولى، 2006م

د عبد اللطيف سلامي،مراجعة واشراف د حياة عبد الله معرفي ، المدخل إلى فن المناظرة ،دار بلومزبري مؤسسة قطر للنشر الدوحة، دولة قطر، الطبعة العربية الأولى 2014

علي سامي المشار: نشأة الفكر الفلسفي في الاسلام ج1،ط9،دار المعارف، القاهرة،

الهادي الفضبلي:خلاصة علم الكلام، الجامعة العالمية للعلوم الإسلامية،اللجنة الدائمة لمنهج الكتب،دار المؤرخ العربي ،بيروت ،لبنان ،ط1414،2هـ،1993م.

محمود الشافعي:مدخل إلى دراسة علم الكلام، منشورت إدارة القرآن والعلوم الإسلامية، كراتشي ،باكستان ،ط2 ،1422هـ /2001م

يمنى منى طريف الخولي: الطبيعيات في علم الكلام،مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة ،مصر،2014م.

ابن خلدون: المقدمة.

حسن حنفي وآخرون، موسوعة الحضارة العربية الاسلامية، دار الفارس للنشر والتوزيع، القاهرة، مصر، ط - 1 ، 1995